

جهود ابن باديس في الإصلاح العقدي والفكري

أ. خير الدين شرقي
جامعة المسيلة

الملخص:

لم يكن الاستعمار هو المشكل الذي كانت تعاني منه الجزائر، بل هناك ما هو أعظم منه وهو الجهل والامية، ولذلك ظهر علماء من ربوع الجزائر يبصرون الناس بدينهم ويأخذون بأيدهم إلى تصحيح عقيدتهم وتوعيتهم بخطورة الاستعمار وخطورة الجهل معاً، فكان ابن باديس رائداً في هذا المجال، حمل لواء الإصلاح والنهضة للشعب الجزائري، بالإضافة إلى كونه مصلحاً اجتماعياً كان أيضاً داعية وفقه إسلامي، وقد استطاع أن يغيّر مجرى التاريخ ويحدث طفرة على مستوى الفكر والوعي، جعلت منه مصدر فخر واعتزاز لا للجزائريين فحسب، بل لكل العالم العربي والإسلامي. وفي بحثنا هذا أردنا أن نوضح جهود ابن باديس الإصلاحية في الجانب العقدي والفكري.

Abstract:

It was not colonialism that was the problem of Algeria, but there is something greater than it is illiteracy and illiteracy, and that is why scientists from Algeria appeared to see people in their religion and take their hands to correct their faith and awareness of the danger of colonialism and the danger of ignorance together, Ibn Badis pioneered in this area The reform and renaissance brigade of the Algerian people. In addition to being a social reformer who was also an Islamic preacher and jurist, he managed to change the course of history and to make a breakthrough in the level of thought and awareness that made him a source of pride and pride not only for the Algerians but also for the entire Arab and Islamic world. In this research, we wanted to clarify Ibn Badis' reform efforts on the ideological and intellectual side.

مقدمة

عاشت الجزائر في ظل الاستعمار الفرنسي ما يزيد عن القرن، عاشت خلالها ويلات الظلم والجهل والإبادة، وهي لا تزال تتجرع مرارته إلى يوم الناس هذا، ولكن بفضل الله، وحفظه ورعايته، قيّض لهذا الشعب الأبي رجالاً مخلصين حفظوا له كرامته وعزّته، وأبقوا له انتماؤه الإسلامي والعربي وكان في صدارة هؤلاء الشيخ عبد الحميد بن باديس، والذي لا يذكر الإصلاح إلا وذكر دور هذا الرجل فيه.

ونتيجة لحالة الجمود الفكري والثقافي، والتقهقر السياسي والاجتماعي في تلك الفترة، فقد بذل الشيخ جهدا عظيما في الحفاظ على الهوية الجزائرية، من خلال مشروعه الإصلاح، الذي بناه على قواعد وأسس إسلامية وحضارية.

ولم يكن الاستعمار هو المشكل الذي تعاني منه الجزائر، بل هناك ما هو أعظم منه وهو الجهل والأمية، ولذلك ظهر علماء من ربوع الجزائر يبصرون الناس بدينهم ويأخذون بأيدهم إلى تصحيح عقيدتهم وتوعيتهم بخطورة الاستعمار وخطورة الجهل معا، فكان ابن باديس رائدا في هذا المجال، حمل لواء الإصلاح والنهضة للشعب الجزائري، بالإضافة إلى كونه مصلحا اجتماعيا كان أيضا داعية وفقه إسلامي، وقد استطاع أن يغيّر مجرى التاريخ ويحدث طفرة على مستوى الفكر والوعي، جعلت منه مصدر فخر واعتزاز لا للجزائريين فحسب، بل لكل العالم العربي والإسلامي . وفي بحثنا هذا أردنا أن نوضح جهود ابن باديس الإصلاحية في الجانب العقدي والفكري .

أهمية البحث:

الحقيقة أننا مهما كتبنا عن الشيخ عبد الحميد بن باديس من دراسات فإننا لم نستوفيه حقه باعتباره رائد حركة الإصلاح والتي كان لها الأثر في النهضة الحديثة، وإن كل ما كتب مقارنة مع حجم التضحيات يعتبر قليل جدا، ولذلك فقد تناولنا جهود العلامة ابن باديس من الجانب العقدي والفكري وقد حاولنا في هذا البحث التعريف بمنهج ابن باديس العقدي ودراسته دراسةً تعتبر نوعا ما مجملة لكل ما يمكن أن يكون له الأثر في هذا النجاح الذي وصل إليه ابن باديس، والنجاح الذي حققه ابن باديس يقتضي منا أن نحلله ونفيد به في المشاكل التي نعاني منها في زماننا.

كما يمكن طرح التساؤلات التالية:

- ما هو سرّ نجاح التجربة الباديسية في إصلاحه العقدي والفكري ؟
- كيف استطاع الرجل التغلب على الصعوبات في ظل الاستعمار؟
- ماهي الوسائل التي اعتمدها في منهجه؟
- لماذا لم يكتب لبعض التجارب النجاح الذي حظي به الرجل؟..

أهداف البحث:

- معرفة أهداف ابن باديس في الإصلاح العقدي والفكري .
- إلقاء الضوء على خصائص منهجه.
- معرفة الوسائل التي اعتمدها في الدعوة والإصلاح.

- كيفية نجاح في مشروعه الإصلاحي في ظلّ الظروف الصعبة التي مر بها
- الوقوف على جوانب التأثير والتأثير في الإصلاح
- حاجة الأمة العربية والإسلامية إلى منهج ابن باديس الإصلاحي

أهم الدراسات السابقة:

إنّ النجاح الذي وصل إليه ابن باديس من خلال تجربته التي خاضها جعلت الدارسين يسيلون الحبر الكثير على منهجه الإصلاحي، ومن بين هذه الدراسات ما كتبه الدكتور تركي رابح من خلال كتابه " الشيخ عبد الحميد بن باديس رائد الإصلاح والتربية في الجزائر " والدكتور عبد الكريم بوصفصاف من خلال كتابه " جمعية العلماء المسلمين الجزائريين ودورها في تطور الحركة الوطنية "، بالإضافة إلى الأستاذ محمد الميلي من خلال كتابه " ابن باديس وعروبة الجزائر. " إلا أنّ هذه الدراسات لم تتخصص في دراسة المنهج إلّا ما كان من الأستاذ عمار بن مزور من خلال كتابه " عبد الحميد بن باديس ومنهجه في الدّعوة والإصلاح ". أو كتاب الأستاذ شريف رضا من خلال كتابه " تجربة التجديد والإصلاح في فكر ابن باديس ومحمد عبده " والذي قام بالمقارنة بين المنهجين، وما اردنا اضافته لهذه الجهود هو التركيز على الجانب العقدي والفكري .

منهج البحث:

إنّ المنهج الذي اعتمدت عليه في الدراسة هو المنهج التاريخي، فمن خلال دراسة حياة الرجل والظروف السائدة في وقته ؛ بالإضافة إلى المنهج التحليلي والاستقرائي في محاولة للوقوف على المنهج الإصلاحي في جانبه العقدي والفكري .

خطة البحث:

تتكون خطة البحث من مبحثين، تناول المبحث الأول، الحالة السياسية والاجتماعية والثقافية والاقتصادية والدينية ابن ظهور دعوة ابن باديس، وتناول المبحث الثاني منهج ابن باديس الإصلاحي في جانبه العقدي والفكري وأهداف دعوته الإصلاحية، وكانت الخاتمة متضمنة نتائج البحث .

المبحث الأول: لمحة عن الظروف التي ظهر فيها ابن باديس

المطلب الأول: الحالة السياسية:

تعتبر الفترة الواقعة بين 1871 و 1914 ذروة الاستعمار الفرنسي في الجزائر وهي الفترة التي ولد فيها الشيخ ابن باديس، حيث شهدت سيطرة المستوطنين الأوروبيين على ثروات البلاد، وعلى إدارتها أيضاً، كما قابلت هذه السيطرة تحطم أسس المجتمع الجزائري وبالإضافة هذه السياسة المجحفة

لحقوق الجزائريين، وانتهجت فرنسا سياسة أخرى وهي إبرام المعاهدات مع الجزائريين واتفاقيات تقضي بإعطاء جميع حقوق المواطنة لهم مقابل المشاركة مع فرنسا في حروبها خارج الوطن، مثل تلك التي وقعت أثناء الحرب العالمية الأولى والثانية، لكن فرنسا لم توفي بجميع وعودها وإنما استعملت هذا الأسلوب للتماطل.

وقد انتهجت فرنسا العام 1845م التقسيم الإداري للبلاد، وهو إنشاء منطقتين شمالية يحكمها فرنسيون مدنيون لأن الغالبية من السكان كانوا فرنسيين، وجنوبية يحكمها عسكريون¹ أدت هذه السياسة إلى ظهور مقاومة جديدة للشعب الجزائري بعد فشل المقاومة الشعبية المسلحة، مثل ثورة جرجرة الكبرى، وظهرت المقاومة السياسية والمتمثلة في الحركات والمنظمات والجمعيات إلا أنها ظهرت متأخرة حتى 1914 رغم أنّ المقاومة المسلحة فشلت مبكراً ومن بين أسباب تأخرها:

- 1- الحروب الكثيرة التي وقعت في الجزائر مما ترتبت عليه استشهاد عدد كبير من القادة والزعماء والمفكرين والمثقفين ورجال دين.
- 2- سياسة مصادرة الأراضي من الجزائريين التي اتبعتها فرنسا ضد القبائل الثائرة والتي انضمت إلى الأمير عبد القادر ولهذا عم الفقر والبؤس مختلف أبناء الجزائر مما أبعدهم عن التفكير السياسي.
- 3- هجرة عدد كبير من العائلات الجزائرية إلى المشرق العربي وتركيا وقبل بداية الحرب العالمية ظهرت حركة هجرة كبيرة عندما قرّرت الحكومة الفرنسية التجنيد الإجباري
- 4- القضاء على مراكز الفكر الإسلامي والثقافي في الجزائر ممّا أثر في تأخر الوعي لكن وبعد نهاية الحرب العالمية الأولى والتي شارك فيها الشعب الجزائري بالمجندين الذين أجبروا على القتال تحت راية فرنسا والذين قتل منهم حوالي 80 ألف قتيل، حيث وعدتهم بالاستقلال إذا شاركوا معها، لكنها أخلفت وعودها، عرض وفد جزائري بقيادة الأمير خالد قضيته في مؤتمر الصلح المنعقد بقصر "فرساي" ليكون للجزائر نصيب من حركات تحرر الشعوب التي كان ينادي بها الرئيس الأمريكي "ولسن"، لكن المفاوضات لم تنجح، فكّون الأمير خالد مع زملائه هيئة عرفت باسم "وحدة النواب المسلمين"².

المطلب الثاني: الحالة الاجتماعية؛

لقد بذلت فرنسا كل ما بوسعها لطمس معالم الشخصية الجزائرية، وهي التي يعتز بها الجزائريين لانتمائهم إلى العروبة والإسلام، وقد لجأت إلى عدّة طرق وأساليب لتفكيك مقومات هذا

الشعب من لغة ودين وانتماء وتحويله إلى شعب بلا هوية ليسهل عليها نشر ثقافتها الفرنسية والديانة المسيحية، وتمكين المعمّرين من ثروات البلاد ومن بين هذه الأساليب:

الإدماج: في اليوم 04 نوفمبر 1848 تم الإعلان عن دستور الجمهورية الفرنسية الثانية والتي نص عليها المادة 109 منه بأنّ الجزائر تعتبر أرضاً فرنسية³، وقد استغل المعمرون لتأسيس المزيد من القوة الاستيطانية، وكانت فرنسا تقنع الجزائريين بأنها جاءت إلى الجزائر لتجلب لهم الحضارة⁴. ومن هذا القرار شهدت الجزائر حملة لتجنيس الشعب الجزائري، ومن خلال الإحصائيات ما بين (1855-1875) تمّ تجنيس 371 ألف جزائري الذين تخلّوا عن أحوالهم الشخصية الإسلامية⁵، ثمّ زادت هذه الأرقام حتى فترة الشيخ ابن باديس وقد باء هؤلاء بالخسران المبين حين ارتدوا عن دينهم وأمّتهم .

بث الثّغرات العرقية والجهوية:

لقد حاول الاستعمار الفرنسي بث التفرقة بين الجزائريين أنفسهم بعدما جعل المجتمع الجزائري بموجب قراراته الجائرة يتكون من طبقتين: طبقة المعمرين وما يساعدهم من جزائريين، وطبقة الجزائريين الفقراء والبؤساء الذين يعيشون حياة قاسية وتعيّسة، ولم تكتفي فرنسا بهذا بل عمدت إلى تفرقة الجزائريين .

ومن أبرز مظاهر ذلك: إثارة النزعة البربرية، بنفث الدّعاية العنصرية ونشر أبحاث وأعمال غير بريئة حول الثقافة القبائلية بإشراف الآباء البيض⁶ وذلك لقطع صلة سكان البلاد الأصليين وهم القبائل - كما تدعي فرنسا- بإخوانهم العرب وباللغة العربية وبالدين الإسلامي، والذين تعتبرهم فرنسا أجنب، كما أنّها عمدت إلى طمس وتشويه الذاكرة الجماعية والذوق الاجتماعي واللّغوي من خلال تغييب التاريخ الوطني والإسلامي.

فقد أدت السياسة الاستعمارية إلى تغيير دور الإسلام وانحصار تأثيره وتدهور حالة اللغة العربية وتفشي الجهل بين النّاس وانتشار الفساد وتفشي الفقر والجوع والأمراض الفتّاقة، وفي ظل هذه الظروف كان لابد من ظهور منقذ لهذا الشعب، فكانت رعاية الله وحفظه لهذا الشعب سخّرت له شخصيات تخرج من صلبه تدود عن الإسلام والعروبة مثّلت ضمير هذا الشعب.

المطلب الثالث: الحالة الثقافيّة:

إنّ من أهمّ المقومات الشخصية الجزائرية؛ هي الدّين الإسلامي واللّغة العربية وكل ثقافة هذا الشعب لا تخرج بأي حال من الأحوال عن هذين المصدرين، كما تعتبر المقومات الشخصية هي رمز

اعتزاز الشعب الجزائري، فعليها كان يدور الصراع بين فرنسا والشعب الجزائري، فقد عمدت فرنسا لأوّل وهلة من دخولها أرض الجزائر إلى طمس معالم هذه الشخصية والقضاء عليها واستبدالها بدين يناسبها ويسهل عليها التحكم في الشعب الجزائري، حيث بدأت أوّل ما بدأت إلى محاربة الدين الإسلامي وذلك بمصادرة الأوقاف الدينية والاستيلاء عليها وإغلاق المساجد وتحويل بعضها إلى كنائس كما بدأت بالتضييق على الأئمة والدعاة والمصلين والزّج بهم في السجون خاصة الذين رفضوا الاستعمار.

كما أنّ الثقافة الجزائرية كانت قبل الاحتلال على قدر كبير من التطور فقد كانت نسبة الأميّة في أوساط المجتمع الجزائري ضئيلة جداً وهذا لانتشار العلم والثقافة بشكل كبير متمثلة في دور العلم والزوايا وكتّاب ومدارس وغيرها، على عكس ما كان يروّج له الاستعمار على أنه جاء من أجل أن يعمل على تحضير الشعب الجزائري وتثقيفه بثقافة راقية على غرار الثقافة المختلفة .

بالإضافة إلى هذا بدأت فرنسا بمحاربة اللّغة العربية لأنها تعتبر لغة القرآن وأنّ الدين الإسلامي جاء إلى الجزائر باللغة العربية فأصبح لزاماً على فرنسا إذا أرادت أن تحوّل الجزائريين المسلمين إلى مسيحيين، وتغيّر لغتهم إلى الفرنسية ومن ثم تغيير ثقافتهم ودينهم، ومن الأساليب التي أنتجها المستعمر هي:

1- مصادرة المعاهد التربوية والتعليمية العربية وتحويل الباقي إلى معاهد للتعليم الفرنسي الخالص.

2- جعل التعليم في جميع المدارس الحديثة باللغة الفرنسية وحدها.

3- فرنسة الإدارة فرنسة كاملة تماشيًا مع سياسة فرنسة الجزائريين .

4- محاربة اللّغة العربية والثقافة العربية بقصد القضاء عليها .

5- أصدرت في عام 1838 قانوناً رسمياً اعتبرت اللّغة العربية لغة أجنبية في الجزائر.

6- محاربة حركة التعليم العربي "الحر" التي كانت تقوم بها بعض المنظمات.

7- تقسيم اللّغة العربية إلى ثلاث لغات: عربية فصحي، وعربية عامية، وعربية حديثة، ثم قرّرت

منع تدريسها في المدارس الابتدائية وجعلها لغة اختيارية في التعليم الثانوي.⁷

ونتيجة لمحاربة الاحتلال للثقافة بصفة عامة والثقافة العربية بصفة خاصة في الجزائر؛ سادت الأميّة بين الأفراد، حتّى أصبحت بعد قرن وثلث من الاحتلال تشكل 94.9% بين الرجال و98.4% بين النساء

المطلب الرابع: الحالة الاقتصادية؛

لقد تعرّضت الجزائر إلى الاستعمار الفرنسي من 1830 إلى 1962 وخلال هذه الفترة قام المستعمر بحملة شرسة ضد الشعب الجزائري في شتى المجالات ومنها الجانب الاقتصادي حيث ظلّ الاستعمار خلال هذه الفترة ينهب خيرات البلاد من الشَّعب ويعطيها لحنّالة المستوطنين⁸.

وبموجب هذه القرارات الظالمة تحوّل السّكان الأصليين إلى عبيد عند المستوطنين، وجعل المساحات الخاصّة بالزّراعة في يد هؤلاء ما زاد من معاناة الجزائريين وظهور البؤس والحرمان وتفشي الفقر

وقد قامت دولة الاستعمار بمحاولة دمج الاقتصاد الجزائري بالاقتصاد الفرنسي لتكون التبعية في كل المجالات وليسهل عليها التحكم في الشَّعب الجزائري، ولهذا عمدت إلى توحيد الاقتصاد الجزائري لخدمة اقتصاد بلادها⁹.

بالإضافة إلى فرض الضّرائب على الجزائريين ومن أهمّ الضّرائب الزكاة والعشور؛ وهي تعد ضريبة عن المواشي والمحاصيل الزّراعية، ضريبة على النّخل والواحات¹⁰.

وبموجب هذه السّياسات التي قامت بها فرنسا، خاصة في عهد الجمهورية الثالثة لم تتوقف فرنسا عن ابتكار أنواع جديدة ووسائل متعددة لانتزاع الأرض من الجزائريين، وتوظيف المستوطنين، واستغلال الموارد فتحوّلت الجزائر إلى مستعمرة استيطانيّة استثماريّة، ينعم فيها الغرباء بجميع الخيرات ويهلك أبنائها بكلّ الآفات، ما جعلها بحقّ جنّة للأوروبيين وجحيماً للجزائريين¹¹، فقد كان الشَّعب الجزائري يعاني البؤس والحرمان منذ أن وطأت أقدام المستعمر أرض الجزائر سنة 1830 وحتى زمن عبد الحميد بن باديس إضافة إلى هذا كله ما تعرض له من سنوات جفاف وجذب حيث قلّت المحاصيل الزّراعية ممّا أدّى إلى انتشار المجاعات والأمراض وازدياد معاناة الشعب في ظلّ الاستعمار الغاشم .

وقد انعكست السّياسة الاستعمارية على الاقتصاد الجزائري والتي منها¹²:

- نزع ملكية الأرض من الجزائريين وتشريدهم في المناطق القاحلة .
- تدهور المداخليل وانهيار مستويات المعيشة .
- انتشار غير مسبوق للبطالة.
- تفشّي الأمراض والأوبئة الفتّاكة .

المطلب الخامس: الحالة الدينية:

من بين أهم الأهداف التي جعلت فرنسا تقوم باحتلال الجزائر عام 1830 هو التزعة الدينية ورغبة في القضاء على الدين الإسلامي ونشر النصرانية، وقد أعلن رسمياً الحاكم العام الفرنسي في عام 1832 فقال: "وإنَّ آخر أيام الإسلام قد دقت، وفي خلال عشرين عاماً لن يكون للجزائر إله غير المسيح ونحن إذا أمكننا أن نَشك في أنَّ هذه الأرض تملكها فرنسا فلا يمكننا أن نَشك على أيِّ حال بأنَّها قد ضاعت من الإسلام إلى الأبد، أما العرب فلن يكونوا رعايا لفرنسا إذا أصبحوا مسيحيين جميعاً"¹³.

فبدأت فرنسا أوَّل ما بدأت بمصادرة المساجد والجوامع والأوقاف الدينية، فأصدرت أمراً في 8 سبتمبر 1830 يقضي بالاستيلاء على الأوقاف الإسلامية وذلك بعد دخول الاحتلال إلى الجزائر بشهرين فقط من الاحتلال¹⁴.

ولقد كان الجيش الأوَّل يقوم مثلاً بالهجوم على ناحية من نواحي القطر فيدمر مساكنها ويخرب مزارعها، ويفتك برجالها ونساءها، وبعد أن ينتهي من المهمة على الوجه المطلوب، يخلي مكانه للجيش الثاني حيث يأتي التبشيريون بالخبز والدواء والكساء في يد وفي اليد الثانية الصليب فيعطون الدواء والأكل مقابل التخلي عن الدين الحنيف.¹⁵

ولم يكتف المبشرون بهذا بل ابتكروا خطة شيطانية وهي محاولة فصل بعض المناطق التي لا تزال تتحدث باللهجة البربرية بدعوى أنَّ الجزائر مكوَّنة من العرب والأمازيغ فزعموا أنَّ البربر لم يبلغ الإسلام قلوبهم، ولذلك أصدرت فرنسا في سنة 1859 قانوناً يخرج القبائل من منطقة جرجرة عن أحكام الشريعة لزرع الشقاق بينهم وبين بقيَّة سكان القطر، ولكن لم يمضي عامان عن صدور القانون حتى قامت ثورة الشيخ الحداد والحاج المقراني العام 1870م، ممَّا أدَّى إلى فشل السياسة¹⁶، وإنَّ من مميزات الظروف الدينية في الجزائر في فترة الاستعمار هو انتشار الفكر الصوفي الذي يهدف إلى تزكية النفس والارتقاء بها إلى درجة عالية تجعلها لا تحسَّ المادة وإنَّما تتفاعل مع الرُّوح، إلَّا أنَّها وعبر مرور الزمن انحرفت على هذا وصارت ملجأً للبدع والخرافات والمشعوذين والمنحرفين عن جادة الإسلام، فاستطاعت فرنسا بسياستها الرامية إلى دعم نفوذها أن تكسبهم إلى جانبها فأصبحوا - ولو دون أن يشعروا - أداة في خدمة أهدافها ضدَّ الجزائريين باعتبارهم - عند فرنسا- ممثلين للإسلام¹⁷.

ومن هذا المنطلق الخطير كان لابد من أن يحدث تغيير جذري يهدف إلى إرجاع الإسلام إلى مكانته، وذلك عن طريق محاربة هذه الطرق المنحرفة وإظهار للناس حقيقة خرافات وشعوذة الطرق الصوفية المنحرفة، وعقاب رجالها بسبب تعاونهم، وهذا له أولوية قبل المعركة ضدَّ

الاستعمار لأن بعض الطرق الصوفية يروون في الاستعمار قضاء وقدر الله المحتوم فيجب تقبله لأن الله الذي أتى بالمستعمر وهو الذي سيخرجه، ممّا جعله يحظى برعاية من المستعمر.

المبحث الثاني: المنهج الإصلاحى العقدي والفكري؛

المطلب الأول: أصول منهجه؛

إنّ الباحث في المناهج التي يتّخذها المصلحون للتجديد والدعوة لا بدّ عليه من دراسة الأصول التي يتّبعها الداعية في منهجه، وكيف أنّ العلاقة بين أصول هذا المنهج وبين ما يحققه هذا المنهج من نتائج على مستوى المجتمع، ثمّ إنّ دراسة أصول منهج الشيخ عبد الحميد بن باديس يساعدنا في معرفة التجربة التي خاضها والنتائج التي حصل عليها وربط أصول هذا المنهج بجذوره ومنطلقاته الحضارية التي بني عليها.

ومن هذا المنطلق يمكن لنا معرفة مكانة هذه التجربة بين النماذج الإصلاحية التي سبقتها، لهذا فإننا في دراستنا لأصول منهج الشيخ عبد الحميد بن باديس سوف نتطرق إلى أصليين اثنين وهما:

1- الأصول العقائدية.

2- الأصول الفكرية.

1- الأصول العقائدية؛

إنّ من أهمّ مظاهر صلاح الدّين؛ هو صلاح العقيدة لأنّ الإسلام جاء بناء على تصحيح العقيدة الفاسدة للمجتمع المكيّ، وفي عهد الاستعمار عمدت فرنسا إلى تشويه عقيدة الجزائريين عن طريق نشر الخرافات والبدع التي كان وراء انتشارها بعض الطّرق الصوفية وبعض مشايخ الزوايا، الذين كانوا وراء تنفيذ مشروع استعماري يهدف إلى صرف الجزائريين عن تعاليم دينهم الحنيف، لهذا كان من الضروري أن نبدأ بعرض موقف الشيخ عبد الحميد بن باديس من المسائل العقائدية، كما أنّ العبادة التي يفهمها هو لا تنحصر في أداء الفرائض مثل الصلاة أو الصوم أو التسبيح والتهليل؛ بل الأساس عنده أن يكون المؤمن له عقيدة صحيحة سليمة وهذا ما يدفعه إلى تطبيق ما أمر الله به من أوامر، وهذا يدفع الإنسان إلى تصحيح عقيدته التي شوّهت كثيرا بالخرافات والبدع، وقد اتّجه ابن باديس لتصحيح هذه المفاهيم الإجابة عن أسئلة من مصدرها الأساسي: الكتاب والسنة كما كان عليه سلف الأمة .

"ورأي ابن باديس هو أن يأخذ من القرآن الرّدّ على من انحرفت فطرتهم أو تاهت بهم السبل عن إتباع طريق الحق والهدى والرشاد؛ لأنّ فيه من الأدلة المقنعة والشواهد المؤيدة ما يرضى

العقل ويطمئن النفس ويقود الضمير إلى الإيمان"¹⁸، لذا نجد عناية القرآن الكريم البالغة بالعقيدة وتصحيحها وتحديد معالم التوحيد من حيث وصف الله تعالى بما ينبغي له وتنزيهه عمّالاً يليق به من الأوصاف، قد أرسى لنا منهاجاً متكاملًا في العقيدة.

"وقد طُبّق ابن باديس منهاجاً عملياً في الكتاب الذي ألقاه على طلبته دروساً في الجامع الأخضر وأملاه بعضهم عنه ونشر بعد وفاته بعنوان (العقائد الإسلامية من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية)"¹⁹.

فقد ربط ابن باديس دعوته لإصلاح العقيدة بالكتاب والسنة وهو في هذا على قناعة أنه لا يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها، فقد كان يستعمل منهج الاستدلال، وهذا هو حال كل مصلح سائر على نهج المصلحين السلفيين من أتباع المدرسة الإصلاحية السلفية التي ظهرت في القرن الثامن عشر، وكانت تنادي بضرورة عودة المسلمين إلى إتباع الأولى؛ وهو الكتاب والسنة بعيداً عن بدع المبتدعين وتزمت المزمّتات وخرافات المخرفين.²⁰

ومن هنا تتضح لنا طريقة ابن باديس ومنهجه في العقيدة جلياً من خلال تفسيره للقرآن الكريم في كتاب مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير، وكذلك شرحه للحديث النبوي في كتابه: مجالس التذكير من حديث البشير النذير، باعتبار أن القرآن الكريم والسنة النبوية هما الأساس في استنباط الأحكام من خلال شرح وتبيان ما جاء في القرآن الكريم من أحكام، بالإضافة إلى ما تركه سلفنا الصالح من تراث وأقوال مأثورة، والابتعاد عن كل ما يمكنه توسيع الخلاف وكثرة الجدل.

2- الأصول الفكرية؛

الأصول الفكرية هي الآراء والأفكار والتصورات التي تأثر بها الشيخ عبد الحميد بن باديس واعتمد عليها ووظفها في منهجه للدعوة إلى الله، وزرعها في نفوس الأجيال وبعث يقظة فكرية في المجتمع لكي يعيد للأمة كرامتها وعزتها ويعيد للإسلام والعروبة مجدها والحرية لهذا الوطن.

ثم إن المتتبع للأفكار التي تأثر بها تقودنا إلى استخلاص السمات المميّزة للتفكير الباديسي، تلك السمات التي تبين لنا أن تفكير ابن باديس تفكير عقلاني متفتح من جهة، وسلفي ملتزم من جهة ثانية، والسلفية عنده لا تعني تقليداً أعمى للأوائل ولا تقديساً للماضي من حيث هو ماضي، وإنما يعني إتباعاً للنهج الذي رسمه الإسلام.²¹

هذا هو الفكر الذي تشبّع به ابن باديس ووظفه في منهجه واجتهاده وأحكامه في معالجة الأمور إلى طرأت على مجتمعه، ومن هنا يتبين أنّ تفكير ابن باديس كان تفكيراً أصيلاً يجمع بين العقلانية والقيم الإسلامية.

"وقد يبدو هذا الاتجاه غريباً بالنظر إلى ثقافته التقليدية وقراءاته الدينية والبيئة العائلية المحافظة التي نشأ بها"²².

وهناك عوامل أسهمت في بروز هذا الاتجاه وقد أشار الأستاذ محمد الميلي إلى بعضها وهي كالتالي:

- 1- معايشة ابن باديس الأوساط المحتكة بالتّيار الثقافي الغربي ممّا جعله يلاحظ عن كثب العوامل التي كانت سبباً في تفوّق الغرب وتقدّمه، ولعلّ هذا الذي جعله لا يتردد في الدّعوة إلى الأخذ بأسباب التقدم وطلب المعرفة بأيّة لغة ومن أي مصدر.
 - 2- التأثير المزدوج في ثقافته والذي يرجع إلى دراسته في تونس، وتأثير التّيار العصري التاريخي ممثلاً في الشيخ البشير صفر، أحد مشايخه، وتأثير التّيار الإسلامي التقليدي الإصلاحي ممثلاً في الشيخ محمد النّخلي، الذي كان له الفضل في توجيه عقله فيما يقرأ، وأزالت الغشاوة التي كانت على ذهنه من التقليد.
 - 3- الآثار التي تركتها أفكار الأفغاني وشكيب أرسلان والكواجي، وغيرهم ممّن كان لهم فضل في بعث اليقظة الفكرية في الشرق العربي، التي انتقلت آثارها بشكل غير مباشر إلى المغرب العربي، وأثّرت في علمائنا وفي اتّجاهات الإصلاح عندنا.²³
- وفي الأخير يمكن أن نستخلص من كل ما قرأنا في هذا المجال أن التوجّه السّلفي لابن باديس تمتد جذوره إلى ابن تيمية خاصّة فيما يخص العقيدة ومحاربته للبدع، وكذلك من خلال مقالاته الصحفية، حيث نجد تأثيره بجمال الدّين الأفغاني في حركته الإصلاحية ودعوته إلى نهضة إسلامية شاملة أساسها الكتاب والسنة وهدى السلف الصالح.

المطلب الثاني: وسائل وأساليب دعوته:

إنّ من أهمّ السبل إلى تحقيق الأهداف المسطرة والوصول إلى الغايات المرجوة، هو اتخاذ وسائل ناجحة توصل إلى الهدف بكل دقّة وسرعة وتوفير الجهد، فكل نتائج مرجوة من عمل ما مقترن بالوسيلة التي سخّرت له، ونلاحظ أن هناك الكثير من الأهداف السامية والنبيلة لم يكتب لأصحابها النجاح، وهذا راجع إلى أن اختيار الوسيلة المناسبة لم يكن موفقاً أو أنّه لم يتم استغلال

الوسيلة بشكل جيد، وربما استعمل لهذا الغرض وسائل مشبوهة، كما كان عليه بعض الفلاسفة الذين يرون أن الغاية تبرر الوسيلة، وهذا غير متاح عند من تضبطه قيم دينية وأخلاقية.

إلا أن الشيخ عبد الحميد بن باديس كان دقيقاً في اختياره للوسائل التي وضعها للوصول إلى هدفه؛ وهو تنمية الفكر الثقافي عند الفرد الجزائري، والوصول بتفكيره السليم إلى مصاف الشعوب المتحضرة والمتقدمة، هذا الهدف لم يكن سهلاً على ابن باديس بل كان صعباً جداً وخاصة ونحن نعلم أن الظروف الصعبة التي كان يعيشها الشعب الجزائري تحت الاستعمار لم تكن سهلة ولهذا كان دراسة هذه الحالة دراسة جيدة، وبالتالي يكون توظيف هذه الوسائل بشكل مفيد.

ومن خلال دراستنا للمشروع الكبير الذي وضعه ابن باديس مع بعض رفقائه في جمعية العلماء المسلمين كأستاذ "البشير الإبراهيمي" ينطلق هذا المشروع أساساً من التعليم والتثقيف ثم يتوسع ليشمل مجالات متعددة، فإن الوسائل والأساليب التي اتبعها يمكن أن نجعلها في النقاط التالية:

- التعليم وإنشاء المدارس الحرة.
- الصحافة.
- الخطابة.
- الزيارات والتنقلات.

1- التعليم وإنشاء المدارس الحرة؛

لقد أخذ التعليم القسط الأوفر من حياة الشيخ عبد الحميد بن باديس وذلك باعتباره الأساس في إصلاح المجتمع، فبعد عودته من رحلاته العلمية، اتبع خطة تتألف من مجالين: "تعليم الطلاب المتفرقين لتلقي العلم، وتعليم العامة وتثقيفهم وهذا بالنسبة إلى التعليم الخاص بالكبار، أما التعليم الموجّه للأطفال في الكتاتيب فقد أوكل أمره إلى بعض طلابه بعد أن خط لهم النهج الذي ينبغي أن يسيروا عليه"²⁴، ولقد كان ابن باديس يلقي دروسه التعليمية في المساجد العامة الناس ودروس خاصة للبعض طوال النهار، فكان يقضي وقته في تعليم الناس، وخاصة ما كان في تفسير كتاب الله في المسجد الأخضر في قسنطينة، وهو أحد المساجد الجامعة التي تشرف عليها الحكومة.

وكان كذلك يلقي دروساً في مسجد سيدي قموش، وتجدر الإشارة إلى أن ابن باديس لم يتقاضى أي مرتب على عمله، أما دروسه التي كان يوجهها للطلبة فتختلف حسب مستوى كل

طبقة ويركز منها على العلوم الدينية واللغوية والتاريخ الإسلامي والتوحيد والمنطق وغير ذلك من العلوم التي تدخل في تكوين الطالب²⁵.

وقد أولى ابن باديس اهتماماً كبيراً لفئة الأطفال الذين بلغوا سنّ التعليم ولم يجدوا مكانهم في المدارس الحكومية "فأسس أول نواة للتعليم الابتدائي سنة 1926، حيث أنشأ مدرسة بمسجد سيدي بومعزة وأطلق عليها أسم الكتاب العربي وأسند إدارتها إلى أحد طلابه الأوائل وهو الشيخ مبارك الملي بعد تخرجه من الزيتونة"²⁶.

ويقول ابن باديس: "كان التعليم المسجدي بقسنطينة قاصراً على الكبار، ولم يكن للصغار إلا الكتابات القرآنية، فلما يسّر الله لي الانتصاب للتعليم عام 1913 م 1332 هـ جعلت من جملة دروسي تعليم صغار الكتابات القرآنية بعد خروجهم منها في آخر صبيحة وآخر العشية، فكان ذلك أول عهد الناس بتعليم الصغار في قسنطينة"²⁷.

2- الصحافة:

تعتبر الصحافة من أهم وسائل التي استعملها ابن باديس في دعوته لكونها تمثل منبراً حراً للمصلح فيها ينشر أفكاره ويعرفها على الطبقة المثقفة التي تقرأ الصحف، وابن باديس من رواد الصحافة العربية الحديثة ومن الذين أرسوا دعائمها على أسس متينة من الإيمان بالمبدأ والوطنية والتقاليد الصحافية العالية.

"وقد دخل ابن باديس إلى عالم الصحافة العظيم -حسب تعبيره- بعد نهاية الحرب العالمية الأولى بسنوات قليلة، حيث رأى ضرورة الخروج بالدعوة الإسلامية السلفية التي شرع فيها ابتداء من 1913 من نطاق جمهور مدينة قسنطينة وضواحيها إلى مستوى جمهور الوطن الجزائري كله"²⁸، "وكانت جريدة (النجاح) التي يشرف عليها الشيخ عبد الحفيظ بن الهاشمي وماسي إسماعيل هي المجال الذي بدأ منه ممارسة العمل الصحافي الهادف وكان ذلك عام 1919"²⁹.

ثم بدأ يفكر في إنشاء صحافة عربية مستقلة خاصة له ليضمن الاستقلالية وعدم التبعية لأي صحيفة، فأنشأ في سنة 1925 (جريدة المنتقد)، "وقد كانت جريدة المنتقد من البداية حارة للمهجة شديدة الانتقاد لتصرفات الإدارة الاستعمارية ضدّ الشعب الجزائري، قويّة الحملة على البدع والأوضاع الطرقية المتردية"³⁰، وقد كان شعار الجريدة "الحق فوق كل أحد والوطن قبل كل شيء"، لكنها لم تعمر طويلاً بسبب شدّة لهجتها؛ حيث أوقفتها فرنسا بعد صدور ثمانية عشر عدداً، وبعد إغلاق جريدة المنتقد أصدر ابن باديس جريدة أخرى لتحلّ محلّ المنتقد هي جريدة (الشهاب)

في نفس السنة التي أصدرت فيها المنتقد، "وقد كتب ابن باديس في رأس صفحة العدد الأول من الشهاب الشعار التالي: تستطيع الظروف أن تكيّفنا ولا تستطيع بإذن الله إتلافنا"³¹.

ولقد كادت الحملات الصحفية الإصلاحية أن تؤدي بحياة ابن باديس خاصة التي كان يتعرض فيها للخرافات والبدع والأباطيل، فقد حاول شخص منتسب إلى بعض الزوايا الطرقية اغتيال الشيخ لكنه نجا منها .

ومن خلال ما رأيناه يتّضح لنا أسلوب ابن باديس في الصحافة، فقد كان أسلوباً مباشراً وواضحاً وصريحاً من خلال اسم الجريدة الأولى المنتقد فقد كان كلامه مفهما للخصوم وطافح بالسخرية خاصة عندما يتعلق الأمر بالدين، أمّا الشهاب فقد كانت مثل الشهاب التي تقابل به الملائكة الجنّ عندما يستمعون للقرآن .

هكذا كان توصيف الصحافة في دعوة ابن باديس إلى الله وإلى إصلاح المجتمع الجزائري من الشوائب التي كانت قد لصقت به وبدينه.

3- الخطابة؛

لقد استعمل ابن باديس الخطابة باعتبارها من وسائل الدّعوة والإصلاح وهذا ما كان عليه النبي صلى الله عليه وسلم في نشر الإسلام، وقد كان يعالج ابن باديس في خطبه جميع المشاكل التي كان يعاني منها الشعب الجزائري خاصة تلك المتعلقة بالدين الإسلامي والانحرافات التي شابت تعاليم الدين خاصة تلك المتعلقة بالقيم والأخلاق .

إلى جانب الخطب الدينية كانت هناك خطب سياسية بمثابة الردّ أو الاعتراض أو تقريراً للأمور السياسية، خاصة بما كان يتعلق بأمور جمعية علماء المسلمين والاجتماعات التي كانت تعقدها، "مما سمح له بإلقاء الخطب وتقديم الافتراضات للمناقشة وانتقاء الصّالح منها لتوسيع دعوة الجمعية والنظر في درجة القوّة أو الضّعف التي تصلها الجمعية كل سنة"³²، وإلقاء خطب تشير إلى إنجازات الجمعية .

ولقد كان لهذه الخطب الأثر البالغ في الشعب الجزائري، حيث استطاعت رد الكثير من المنحرفين الذي تأثروا بالمواعظ فأصبحوا محافظين على الصلوات بشروطها الحسيّة والمعنويّة، وهجروا أمّ الخبائث "الخمر"، بل لقد كانت نتائج الإعراض عن الخمر ملموسة بارزة ضجّ لها تجار الخمر وتنادي بائعوها بالويل والثبور وتعالّت أصواتهم بالتذمّر كما تعالت أصوات مشايخ الزوايا وسدنة القبور.³³

4- الزيارات والتنقلات:

وبما أنّ محنة الجزائر لم تقتصر على منطقة واحدة أو إقليم معيّن، فقد كان الحرمان والبؤس والجهل والخرافات منتشرة في أغلب ربوع الوطن الجزائري، وبما أن الساحة السياسية لم تكن خالية من التيارات، فقد كانت هناك مجموعات تنشط لتعزيز موقعا أو نشر أفكارها ممّا جعل الجزائريين يقتنعون بمبادئها وأهدافها ومن بينها الأحزاب والجمعيات التي كانت معادية لحركة الإصلاح، زيادة إلى ذلك المجهودات التي بذلتها فرنسا للقضاء على مقومات الشعب الجزائري وأصالته العربيّة والإسلاميّة.

هذا كله جعل ابن باديس يقوم برحلات علمية ودعويّة بالقطر الجزائري وبنشر العلم ويدعوا إلى الله، ويحارب الجهل بمختلف أشكاله، وتطهير البلاد من الخرافات والبدع التي لحقت بالدين الحنيف وخدمة العلم والمسلمين.

لقد كان ابن باديس في رحلاته ينزل في المساجد فيدعوا الناس ويقابلهم ويجيب على أسئلتهم، وكان يفتح المدارس القرآنية "وقد أضاف ابن باديس أنّهم وجدوا التأييد من الشعب في المناطق التي زارها"³⁴.

وقد كان يهدف بزياراته كذلك إلى تتبّع نمو فكرة الإصلاح ومدى قوّة تأثيرها في المجتمع .

المطلب الثالث: أهداف دعوته:

بالنسبة للشيخ عبد الحميد بن باديس، فقد كان يهدف مشروعه الإصلاحي إلى عدّة أهداف لم تكن واضحة في أهداف الجمعية أو تصريحات علمائها؛ وذلك بسبب الاحتياطات الأمنية التي اتخذها الشيخ للحيلولة دون معرفة الاستعمار للأهداف الإصلاحية التي كان يريدتها.

ولكن من خلال دراسة أفكار الشيخ ومتابعة جهوده في أرض الواقع، وكذلك من خلال ما قيل عن الهدف من تأسيس جمعية العلماء المسلمين أنّها تهدف إلى محاربة الآفات الاجتماعية ومحاربة الجهل وتنشر الأخلاق الفضيلة والحسنة التي يدعوا إليها ديننا.

ثمّ إنّ التستر على الأهداف الرئيسية وعدم التصريح بها لا يكفي لأنّها ظهرت جليّة في فكر ابن باديس وكذا بيّن عمق الدّراسة الدّقيقة للواقع الجزائري بكلّ أصنافه السياسية والاجتماعية وهذا ما جعل الاستعمار لا ينتبه إلى هذا العمل الكبير وبالتالي لم يتمّ القضاء عليه لمدة 25 سنة إلى أن تمّ تحقيق النجاح لهذه الأهداف والتي كان من ثمارها الثورة المظفّرة التحريرية الكبرى .

ومن خلال ما درسنا وما لاحظناه يمكننا أن نحدّد الأهداف التي سطرّها الشيخ لعمله الإصلاحي والدعوي من خلال جمعية العلماء المسلمين من النقاط التالية:

1- تكوين إنسان جزائري مسلم ومتعلّم ذو أخلاق عالية.

2- الحفاظ على الشخصية الوطنية ومقوماتها.

3- بعث مقومات التغيير في الواقع الجزائري.

1 - تكوين إنسان جزائري مسلم ومتعلّم ذو أخلاق عالية؛

كان منطلق الشيخ عبد الحميد بن باديس من الذين يعتقدون أنّ بناء مجتمع له أخلاق فاضلة لا يمكن أن يكون إلّا إذا صلح الفرد على غرار مجموعة أخرى من المصلحين. ترى أنّ إصلاح المجتمع هو الأول لأنّ الفرد لا وجود له إلّا في جماعة وأنّه لا يمكن أن نتصور الفرد منعزل عن المجتمع تماماً.

"والشيخ عبد الحميد بن باديس من أتباع المدرسة الأولى: التي ترى أنّ الفرد هو أساس البداية في الإصلاح الاجتماعي والأخلاقي، وهو يذهب إلى أنّ الأخلاق تنبع من داخل الفرد وبالتالي يجب البداية به في كل إصلاح وأنّ الوسيلة التي تقوم أخلاقه وتصلحها إنّما تكون عن طريق تطهير القلوب وتهذيب النفوس، وإصلاح العقائد من مظاهر الشرك والبدع والضلال وإيقاظ العاطفة الدّينية في نفوس الأفراد حتى تدفعهم إلى العمل على تغيير ما بأنفسهم كي يغيّر الله ما بهم من سوء وانحطاط".³⁵

ومن هنا بدأ تجسيد هذا التغيير وبعث مقومات المجتمع الجزائري والارتقاء بالشعب الجزائري إلى مصاف الدّول الراقية، فقد وجّه الشيخ عبد الحميد بن باديس كل جهوده إلى تكوين المجتمع الجزائري وذلك بإصلاح الفرد الذي يعتبر نواة هذا المجتمع، ثمّ إنّ الفرد الواحد أهمّ ما فيه هو نفسه فيجب تربيته وتزكيتها، وقد دعا الإسلام إلى العناية بالنفس لأنّ صلاحها من صلاح الفرد وصلاح الفرد من صلاح المجتمع .

وبهذا الجهد الذي بذله ابن باديس أعاد للشباب روحه العالية وثقته الكاملة بنفسه، فانطلق إلى بناء نفسه ودولته وإعداد شعبه إلى مستقبل زاهر، وفي هذا يقول في حقه ابن باديس:

يا نشئ أنت رجاؤنا * وبك الصباح قد اقترب

خذ الحياة سلاحها * وخذ الخطوب ولا تهب

ومن ثم تأسست مجموعات من الكشافة الإسلامية من أهمها (الرجاء والصباح).

ولم يفرق ابن باديس في إصلاح الفرد بين الرجل والمرأة، حيث أعطى كذلك للمرأة اهتماماً كبيراً وذلك حسب دورها الفاعل في المجتمع؛ فهي أساس المجتمعات لأنّ صلاح المرأة وقيامها بدورها التربوي والديني يؤدي إلى المجتمع بالنضوج والصلاح، فهو يرى أنّ مكوث المرأة الجزائرية في بيتها يعني المحافظة على بذرة الإخصاب داخل وجود محدود، لكنّه يمثل القوة للمجتمع المحتل، وبهذا يجعل مكوثها في بيتها بعيدة عن محاولات الاستعمار المتواصلة للتأثير عليها.

كما أنّه كان يعطي دروساً ويعلم القرآن الكريم للأطفال باعتبارهم شريحة من المجتمع لا يمكن التغافل عنها، فهم مستقبل هذه الأمة وأملها، فكان يعلم الصغار في النهار ويدرس الكبار في الليل، وهكذا جعل كل همه وكل وقته لإصلاح الفرد الجزائري بكل أصنافه شباب، رجال، نساء، أطفال، ولم يستثني أي منهم لأنّه كان يعلم أنّ هذه الأطياف هي حلقات متماسكة ببعضها البعض، إذا انقطعت حلقة سقطت جميع الحلقات متتالية، وقد اعتمد ابن باديس في منهجه في إصلاح الفرد: الإصلاح الديني والأخلاقي والاجتماعي الذي لا يخرج على طريقتين:

1- إصلاح عقائده من الشرك.

2- إصلاح أخلاقه من الفساد والمساوئ الأخلاقية الأخرى.

"فالعقائد والأخلاق هما أساس الأعمال والمجتمع كما يقول ابن باديس، ولذلك وجّه الإسلام إليها عناية كبيرة"³⁶، ثمّ يضيف "ولنبداً من الإيمان بتطهير عقائدنا من الشرك وأخلاقنا من الفساد وأعمالنا من المخالفات ولنستشعر أخوة الإيمان التي تجعلنا كجسد واحد ولنشرع في ذلك غير محتقرين لأنفسنا ولا قانطين من رحمة ربنا لا مستقلين لما نزيله كل يوم من فسادنا"³⁷.

2- الحفاظ على الشخصية الوطنية ومقوماتها:

كان هدف ابن باديس هو الحفاظ على الشخصية الوطنية، فكان يصرخ بكل ما أوتى من قوة بقوله:

شعب الجزائر مسلم * وإلى العروبة ينتسب

من قال حاد عن أصله * أو قال مات فقد كذب

فجاء قوله كردّ على المثقفين الجزائريين الذين تربوا في حضن فرنسا وتشبّعوا بثقافتها وابتهروا بحضارتها، وكانوا يرون أنّ الجزائر أصبحت فرنسية، لكن ابن باديس ردّ عليهم بحكمة وشجاعة وأعاد للشعب دينه ولغته وعروبه، وأوضح أصالة انتمائه الحضاري محدّداً دعائمه

وأركانه وهي: اللغة، الدين، التاريخ، والوطن، عن طريق إحياء الدين الإسلامي الصحيح بالكتاب والسنة والرجوع إليهما واعتبارهما هم المصدر، والابتعاد عن البدع والخرافات التي جاءت بها بعض الطرق الصوفية، "ثم إنَّ الدين الذي يراه ابن باديس طريقاً لخلاص الأمة من أوضاعها المتردية هو الإسلام الإيجابي الذي يحارب السلبية والجمود"³⁸.

إنَّ إحياء اللغة العربية باعتبارها الصلة بين الشعب ودينه وتاريخه، وباعتبارها عامل من عوامل الوحدة، إذ أنَّ العوامل التي توحد الأمة ليست فقط الأصل أو العرق بل إنَّ اللغة هي من عوامل التوحد باعتبار أنَّ اللغة هي أداة التواصل بين الشعوب ويمكن تمييز الشعوب عن بعضها البعض باللغة، وهذا ما حدث في عهد النبي صلى الله عليه وسلم حيث كان العرب يعتزون بلغتهم التي كانت سائدة، وهي اللغة التي أنزل الله بها القرآن، ثمَّ إنَّ الاستعمار الفرنسي ما فتئ يحارب اللغة العربية بشقَى الوسائل فهو يعرف تعلق الشعب الجزائري بلغته التي هي جزء من أصالته وانتمائه، فبدأ يدخل عليها بعض الكلمات الفرنسية، وكذلك منع التعليم باللغة العربية وفرض اللغة الفرنسية كلغة رسمية للبلاد.

ثمَّ إنَّ من أهمِّ مقومات الانتماء الحضاري التاريخ وهو ذاكرة الشعوب وأصلها وصورتها التي يرى فيها الشعب نفسه ويحكم على أصله وأمجاده، وهو من العوامل التي تؤدي إلى إتحاد الشعوب في ظلِّ الانتماء نفسه، فالجزائريون يجمعهم تاريخ واحد امتزجت فيه دماء جميع الأعراق من بربر وأمازيغ وعرب دفاعاً عن بلدهم ودينهم، ومن مقومات الشخصية نذكر كذلك الوطن والوطنية؛ وهو الإقليم الجغرافي الذي يحتوي كيان من البشر يعيشون فيه، تجمعهم لغة واحدة ودين واحد وعلى اختلاف أعراقهم وأعرافهم وعاداتهم، ولقد جاء الاستعمار الفرنسي لطمس معالم هذا الوطن والوطنية وتجريم كل من ينطق بهذه الكلمة من خلال إشاعة أفكار خاطئة عن الوطن وهو أنَّ الجزائر قطعة من فرنسا وجزء لا يمكن انفصاله عنها، وهذا ما جعل نخبة من المصلحين تدعوا الجزائريين إلى التمسك بوطنهم ومن هؤلاء الشيخ ابن باديس الذي كان شعاره الأول والأخير: "الحقُّ فوق كل أحد والوطن قبل كل شيء"، وهو ما اقتنع به جريدة (المنتقد) الشهيرة.

وقد بدأت حملات التشكيك والتضليل الفرنسي ضدَّ الجزائريين بهدف إقناعهم بعدم وجود وطن لهم يسمى الجزائر، وسخَّرت لهذه الحملة كل الوسائل المتاحة لها من ترغيب وتبشير الجزائريين بالمستقبل والحضارة التي تنتظرهم في حال تخليهم عن انتمائهم الوطني، ومزَّات بالترهيب والتهديد بشقَى الوسائل خاصة إذا أظهر الفرد الجزائري عناده وإصراره، وقد كانت فرنسا تستعمل الجزائريين المتفرنسين باعتبارهم يمثلون الجانب المشرق الذي يتحول إليه مصير الجزائري

الذي يتخلى على وطنه، وكذلك استعملت بعض المشايخ الصوفيين. وقد نجح الاحتلال في هذه السياسة إلى حد بعيد في إحداث بلبلة في صفوف الجزائريين وتشتيت أفكارهم وزرع الشك لهم ولهذا تفرق الناس إلى أربعة أقسام ذكرها الأستاذ محمد الميلي في كتابه ابن باديس وعروبة الجزائر:

- 1- قسم لا يعرفون إلا أوطانهم الصغيرة وهؤلاء هم الأنانيون الذين يعيشون على أممهم كما تعيش الطفيليات على دم غيرها من الحيوانات.
- 2- وقسم يعرفون وطنهم الكبير فيعملون في سبيله كل ما يرون فيه خيره ونفعه ولو بإدخال الضرر والشر على الأوطان الأخرى، بل يعملون دائماً على امتصاص دماء الأمم والتوسع في الملك لا تردّهم إلا القوة، وهؤلاء شروبلاء على غير أممهم، فهم مصيبة البشرية جمعاء.
- 3- وقسم زعموا أنهم لا يعرفون إلا الوطن الأكبر وأنكروا وطنيات الأمم كما أنكروا أديانها وعدّوها مفرقة بين البشر، وهؤلاء عاكسوا الطبيعة جملة وما عرفته البشرية منذ آلاف السنين.
- 4- وقسم اعترف بهذه الوطنيات كلّها وأنزلها منازل غير عادية ورتبها ترتيبها الطبيعي في تدرجها كل واحدة منها مبنية على ما قبلها وداعمة لما بعدها.³⁹

وبهذا كله كان على الجزائريين الانتصار إلى قوميتهم ومقوماتهم الحضارية بكل ما أوتوا من قوة، وهذه هي وطنيتنا معشر المسلمين الجزائريين الأفارقة ووطنية كل مسلم صادق في إسلامه ووطنه، وفي هذا يقول ابن باديس:

أشعب الجزائري رروحي الفدا لما فيك من عزّة عربية
بنيت على الدّين أركانها فكانت سلاماً على البشرية

3- بحث مقومات التغيير في الواقع الجزائري؛

إنّ من الأهداف التي وضعها الشيخ عبد الحميد بن باديس نصب عينيه للإصلاح والدعوة إلى الله ونبذ صورة التي ما فتى الاستعمار الفرنسي يروج لها ويدعو إليها؛ هي تغيير الواقع الجزائري المعاش، من هذه الصورة الكاملة إلى صورة مشرقة والنهوض بالجزائريّين إلى مصاف الشعوب الراقية، "وهذا الهدف يعتبر من الأهداف الكبرى التي عاش ابن باديس لها وقضى شطراً كبيراً من حياته في العمل على تحقيقها بواسطة التربية والتعليم والإصلاح الديني والاجتماعي ونشاط كبير في الصحافة"⁴⁰، وقد ركّز على استغلال الرأي العام وتوجيهه إلى مصلحة الوطن، وهذا ما تسعى إليه بعض الحكومات حتى في يومنا هذا، وهو ما نسمع به اليوم بدراسة الرأي العام أو التوجيه العام

وتوظيف ذلك في إستراتيجية التوجيه السياسي للدولة، وقد كان الرأي العام الجزائري يتوجه إلى التسليم للاستعمار والانقياد له، لهذا بدأ ابن باديس إلى تنويره وتوجيهه إلى الطريق السليم باعتبار أنه يمثل ضمير الأمة، وحرّرها من الأوهام ويخلصها من اليأس والإحباط.

فالرأي العام عند الشيخ ابن باديس حالة شعورية قادرة على تغيير الواقع إلى الأفضل إذا ما استغل بالشكل الصحيح والمناسب، لهذا فقد لقي من العناية بها والمحافظة على ديمومتها باعتبارها من مقومات التغيير.

وكذلك من بين مقومات التغيير التربية والتعليم، لما للتربية من أهداف سامية تسعى إلى تحقيقها بالنسبة للفرد والمجتمع على حد سواء؛ وهي الأساس التي يبنى عليها كل شيء وليس الخوض في التربية والتعليم هو حشو أذهان المتعلمين بالعلوم والمعارف رغم أهميت هذا الغرض في حد ذاته، بل هو تهذيب أخلاقهم، وتقويم اعوجاجهم وصقل أرواحهم والعمل على توعيدهم على الآداب السامية منذ صغرهم حتى يشبوا عليها فتصبح عادة راسخة في سلوكهم.⁴¹

ولقد اهتم ابن باديس بالتربية والتعليم وجعلها هدفاً من أهدافه خاصّة التربية على أخلاق دينية إسلامية عربية أصيلة، وتوجيه الأجيال على حب العلم والتعلم لأنهما الأساس الذي تقوم عليه المجتمعات التي تريد النهوض بسياستها، حيث بذل جهداً كبيراً في ذلك وسنتطرق إلى الوسائل التي اعتمدها من أجل تحقيق أهدافه فيما بعد.

"ثم إننا حين نتتبع تصوّرات ابن باديس وآرائه في مجال التربية والتعليم يمكننا أن نستخلص عدداً من المبادئ التي تشكل فلسفته التربوية والتي يعتبرها أساساً موجّهاً للعمل التربوي والتثقيفي ومن هذه المبادئ ما يلي"⁴²:

- 1- التربية حقّ الجميع.
- 2- الأولويّة للبعد التربوي.
- 3- العلاقة بين المعرفة النظرية والمعرفة العلمية أو بين النظرية والتطبيق.
- 4- أهميّة العمل.
- 5- المزاوجة بين الأصالة والمعاصرة في العمل التربوي.

وكذلك من أهم مقومات التغيير التي اعتمدها ابن باديس؛ هي نظريته إلى الإنسان وما يحمله هذا المخلوق من مقومات والذي جعل له ابن باديس محور خطته وغايتها، وليس الإنسان الذي اهتم به الفلاسفة القدماء والمجرد عن الزمان والمكان، وليس الإنسان الذي غلبت عليه الفلسفة

والمادة واهتمّ ببعض الجوانب المظلمة على حساب أخرى، ويقول بالحرية المطلقة. إنّما الإنسان الذي اهتمّ بالقيم الروحية والأخلاق العالية.

"فنظرة ابن باديس إلى الإنسان نظرة واقعية لا تجزئ حقيقة الإنسان ولا تختصرها في بعد واحد من الأبعاد المكوّنة لهذه الحقيقة، بل تشمل جميع ما يكون به الإنسان إنساناً مثل الفكر والروح والدوافع (الغرائز) والاعتقادات التي تحصل عن طريق العلم وإهمال الفكر".⁴³

هذا هو الإنسان الذي أراده ابن باديس والذي ارتبط بربّه، المعتصم بدينه، المتمسك بوطنه وعروبته، الحريص على نفع أمّته.

فإنّ اختلاف الأديان والتوجّهات لا يعني التفرقة والتشتت، بل إنّ الوطن الواحد هو الذي يجمع النّاس على اختلاف مشاربهم وتياراتهم، بل إنّ الفرق الذي يمكن أن تبقى عليه الوحدة ليس دينياً بل سياسياً، هو الذي من شأنه أن يحطّم هذه الوحدة.

لذلك بذل بن باديس كل جهده إلى الحيلولة دون وصول فرنسا وعملائها إلى هدم أسس الوحدة الوطنية بواسطة إثارة النّعرات العرقية والجهويّة، واستعمل كل ما يمكنه من أجل لمّ شمل الشعب الجزائري، من الدروس والخطب والزيارات والتنقّلات والجرائد والصحف، فدمج الوحدة الوطنية في مقوّمات التغيّير، عند ابن باديس يدلّ دلالة واضحة على معرفته لسنن التغيّير من جهة وفهمه للواقع الجزائري من جهة أخرى.

الخاتمة:

من خلال هذا البحث، والذي قصدنا من خلاله أن نبين منهج الشيخ ابن باديس في الدّعوة والإصلاح انطلاقاً من التغيّير الكبير الذي أحدثه على مستوى النهضة العقديّة والفكريّة للشعب الجزائري، ورغم الظروف الصعبة التي مرّت بها البلاد خلال الحقبة الاستعماريّة، حيث لم يكن هناك أي أمل في إخراج الشعب الجزائري من محنته، استطاع ابن باديس أن ينشأ لنا جيلاً من الشباب المثقّف الذي كان وقوداً للثورة، هذه الشخصية الفذة التي لم يشهد تاريخ هذا الشعب مثلاً، جابه كل هذه الصعوبات، وأخرج الجزائر من ظلمات الاستعمار إلى نور الاستقلال.

وقد استطاع الشيخ الوصول إلى هذا الإنجاز بفضل عدة مقوّمات، منها التربية الإسلامية التي نشأ عليها والمشايخ الذين كان لهم الفضل في توجيهه الوجهة السليمة، إضافة إلى هذا استعماله لوسائل ناجحة ساعدته في بلوغ هدفه، كما أنّ أصوله العقديّة والفكريّة والسياسيّة؛ كان لها دور كبير في تحديد هدفه وعدم الخروج عنه قيد أنملة طيلة عمله، وقد جعل ابن باديس أهداف

سَطَرها لنفسه كي تكون له غاية يصل إليها، وبذلك استطاع تحقيق أهدافه والتي من بينها؛ تكوين إنسان جزائري مسلم ومتعلّم ذو أخلاق عالية، والحفاظ على الهوية الوطنية، وبعث مقوّمات التغيير.

نتائج البحث؛

ولقد توصّلنا في نهاية هذه الدراسة إلى النتائج التالية:

- 1- يعدّ ابن باديس مرشدا ومصلحا ومعلما، وهذا من ما لاحظناه من خلال منهجه.
- 2- إنّ الشخصية القويّة التي يميّز بها ابن باديس هي العامل القوي في نجاحه.
- 3- استطاع ابن باديس أن يعيد للجزائر انتمائها وينشأ جيلا مثقفا، وهذا راجع إلى إلمامه بعدة علوم ومعرفته بثقافات الشعوب.
- 4- اعتمد ابن باديس في حربه على البدع والخرافات؛ على الكتاب والسنة النبوية، ممّا جعل كثير من العلماء يعتبرون منهجه امتداد للمدرسة السلفية.

قائمة المصادر والمراجع

❁ القرآن الكريم.

- 1- بشير بلاح، تاريخ الجزائر المعاصر، طبعة دار المعرفة، د.ت، الجزائر.
- 2- بوصفصاف عبد الكريم، جمعية العلماء المسلمين ودورها في تطور الحركة الوطنية الجزائرية 1931-1945، الطبعة الأولى، 1991، الجزائر.
- 3- محمد الميلي، ابن باديس وعروبة الجزائر، ط: 2، 1980، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر.
- 4- عبد القادر فضيل ومحمد الصالح رمضان، إمام الجزائر، الطبعة الأولى، 1998، شركة دار الأمة للطباعة والنشر والترجمة والتوزيع، الجزائر.
- 5- حسن عبد الرحمان سلوادي، عبد الحميد بن باديس مفسراً، د.ط، 1988، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر.
- 6- د.تري رايح، الشيخ عبد الحميد بن باديس رائد الإصلاح والتربية في الجزائر، الطبعة الثالثة، 1981، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع الجزائر.
- 7- د.تري رايح، التعليم القومي والشخصية الوطنية، د.ط، 1975، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر.
- 8- د. صالح فركوس، تاريخ الجزائر من ما قبل التاريخ إلى الاستقلال، د ط، 2005، دار العلوم للنشر والتوزيع الجزائر
- 9- وثيقة معاهدة الاستسلام
- 10- سجل مؤتمر جمعية العلماء المسلمين الجزائريين المنعقدة بمركزها العام نادي الترقى بالجزائر، دار الكتب الجزائر.

الهوامش:

- 1- تركي رايح، التعليم القومي والشخصية الوطنية، ص25.
- 2- تركي رايح، الشيخ عبد الحميد بن باديس رائد الإصلاح والتربية في الجزائر، ط: 1981، 3، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع الجزائر، ص56
- 3 د. صالح فركوس، تاريخ الجزائر من ما قبل التاريخ إلى الاستقلال، ط، 2005، دار العلوم للنشر والتوزيع الجزائر، ص399 .
- 4 نفس المصدر، ص399.
- 5 نفس المصدر، ص400.
- 6 بشير بلّاح، تاريخ الجزائر المعاصر، د ط، د ت، دار المعرفة، ج1، ص282 .
- 7 تركي رايح، التعليم القومي والشخصية الوطنية، ص 102.
- 8 بشير بلّاح، تاريخ الجزائر المعاصر، ج1، ص235.
- 9 نفس المصدر، ج 1، ص237.
- 10 بشير بلّاح، تاريخ الجزائر المعاصر، ج1، ص258.
- 11 نفس المصدر، ج1، ص260.
- 12 نفس المصدر، ج 1، ص281.
- 13 تركي رايح، التعليم القومي والشخصية الوطنية، ص 108.
- 14 وثيقة معاهدة الاستسلام .
- 15 تركي رايح، الشيخ ع الحميد بن باديس رائد الإصلاح والتربية في الجزائر، ص42.
- 16 نفس المصدر، ص44.
- 17 تركي رايح، التعليم القومي والشخصية الوطنية، ص 120.
- 18 حسن عبد الرحمان سلوادي، عبد الحميد بن باديس مفسراً، ص77.
- 19 حسن عبد الرحمان سلوادي، عبد الحميد بن باديس مفسراً، ص 80.
- 20 د تركي رايح، الشيخ عبد الحميد بن باديس رائد الإصلاح والتربية في الجزائر، ص200.
- 21 عبد القادر فضيل ومحمد الصالح رمضان، إمام الجزائر عبد الحميد بن باديس، ص145.
- 22 نفس المصدر، ص146.
- 23 نفس المصدر، ص147.
- 24 عبد القادر فضيل ومحمد الصالح رمضان، إمام الجزائر عبد الحميد بن باديس، ص34.
- 25 نفس المصدر، ص 34.
- 26 نفس المصدر، ص 35.
- 27 نفس المصدر، ص36.
- 28 تركي رايح، الشيخ عبد الحميد بن باديس رائد الإصلاح والتربية في الجزائر، ص189.
- 29 عبد القادر فضيل ومحمد الصالح رمضان، إمام الجزائر عبد الحميد بن باديس، ص38.
- 30 تركي رايح، الشيخ عبد الحميد بن باديس رائد الإصلاح والتربية في الجزائر، ص189.

- 31 نفس المصدر، ص190 .
- 32 بوصفصاف عبد الكريم، جمعية العلماء المسلمين الجزائريين ودورها في تطوير الحركة الوطنية الجزائرية 1931-1945 الطبعة الأولى 1401هـ- 1981م الجزائر، ص127.
- 33 سجل مؤتمر جمعية العلماء المسلمين الجزائريين المنعقد بمركزها العام نادي الترقى بالجزائر، دار الكتب الجزائري، ص74.
- 34 بوصفصاف عبد الكريم، جمعية العلماء المسلمين الجزائريين ودورها في تطوير الحركة الوطنية الجزائرية، ص128.
- 35 تركي رايح، الشيخ ع الحميد بن باديس رائد الإصلاح والتربية في الجزائر، ص284.
- 36 تركي رايح، الشيخ عبد الحميد بن باديس رائد الإصلاح والتربية في الجزائر، ص213.
- 37 نفس المصدر، ص213.
- 38 عبد القادر فضيل ومحمد الصالح رمضان، إمام الجزائر عبد الحميد بن باديس، ص61.
- 39 محمد الميللي، ابن باديس وعروبة الجزائر، ص176.
- 40 تركي رايح، الشيخ عبد الحميد بن باديس رائد الإصلاح والتربية في الجزائر، ص252.
- 41 د تركي رايح، الشيخ عبد الحميد بن باديس رائد الإصلاح والتربية في الجزائر، ص282.
- 42 عبد القادر فضيل ومحمد الصالح رمضان، إمام الجزائر عبد الحميد بن باديس، ص165.
- 43 عبد القادر فضيل ومحمد الصالح رمضان، إمام الجزائر عبد الحميد بن باديس، ص180.